

نظرة المستشرقين نحو الرسول الأكرم (ص)



بمناسبة الذكرى السنوية للمولد النبوي الشريف

كان لبعثة الرسول الخاتم محمد بن عبد الله (ص) وقعا كبيرا في الجغرافيا الدينية والثقافية في عصره وامتدت آثاره إلى يومنا هذا وتستمر إلى يوم القيامة.

لقد تغيرت الجغرافيا الدينية وآمن من في الجزيرة العربية، وانطلق الإسلام في بقية المعمورة، ليتحقق الوعد الإلهي (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَالَى الدِّينِ كُلِّهِ) (التوبة/ 33). وكان اتباع الديانة المسيحية في الجزيرة العربية وما جاورها قد وجدوا ضالتهم في الإسلام فأمنوا به إلا قليل، بقوا في صوامعهم وكنائسهم.

لكن الحروب الصليبية، وبدخول العامل السياسي للحكام والأمراء الأوروبيين، أوقدت نيران العداء والبغضاء ضد المسلمين والإسلام، وتبعتها تيارات، أغدق عليها الحكام والبابوات الكثير من الأموال، لدراسة الإسلام وحياة النبي محمد (ص) ومحاولة تخريب الصورة الناصعة لهم، ووقف المد الإسلامي المتأثر بشخصية النبي (ص) وكتابه وسنته، في غرب العالم.

وتلته تيارات الاستعمار لاكتشاف البلدان والقارات والشعوب ومحاولة معرفة طرق النفوذ إليها وإيجاد مواقع قدم للمستعمرين في بلاد الإسلام. وكان منها تيارات الاستشراق والتعرف على الإسلام، ولكن في هذه المرحلة، لخدمة أغراض المستعمرين.

وتأتي المرحلة الثالثة، لتحاول مراكز البحوث والدراسات والجامعات ووزارات الدول الكبرى، العمل على تشويه صورة الإسلام والنبي (ص) أو تحقير المسلمين، لكسر معنوياتهم والعمل على إبعادهم عن دينهم وتراثهم وثقافتهم وهويتهم. وتتطرق هذه الورقة إلى بعض معالم ونماذج هذه المراحل وكيفية التعامل معها. "وفي عام 569 للميلاد، ولدت أمنة، أعظم شخصية في تاريخ العصور الوسطى، بل أعظم شخصية في التاريخ كله..". ويل ديورانت - كتاب "قصة الحضارة". حيدت أن أبدأ البحث بعبارة لباحث وفيلسوف معاصر ومشهور، هو ويل ديورانت، صاحب المؤلفات الضخمة والعميقة في موضوع تاريخ الحضارات، وهو مسيحي، درس التاريخ وعاش سنوات من حياته (حوالي ثماني سنوات) بين الشعوب العربية ومراكز

وإن كانت هذه العبارة إيجابية، وتعبر عن حقيقة كونية كبرى، فإنّ هذا الكاتب الكبير، قد وقع في أخطاءٍ، لا تمس ضروريات المعتقد، أو الأسس الثابتة تاريخياً. فهو قد تلقى الثقافة الغربية والتعليمات المسيحية وانطلق ميدانياً للبحث عن تاريخ الإسلام في المجتمعات الإسلامية.

ومن أجل الخروج بصورة وخريطة واضحة للبحث، فسنبداً ببيان ضرورة التطرق إلى هذا الموضوع "رؤية المستشرقين نحو النبي" (ص) ثمّ نشير إلى بعض المؤثرات على تشكّل رؤيتهم، وما يمكن أن يؤثروا هم فيه من مجربات الأحداث والتيارات وصانعي القرارات، وبعد ذلك نبين بعضاً من المراحل التي مرت بها العلاقة بين المستشرقين والدين والعالم الإسلامي، ونذكر نماذج من الأقوال والمواقف، وفي نهاية المطاف سنحاول استنباط ما يمكن عمله وما يلزم من مواقف لتصحيح العلاقة بين الجانبين، وإصلاح الصورة التي انطبعت وتنطبع في أذهان المجتمعات الأخرى عن الإسلام والنبي" (ص) والمسلمين.

ضرورة دراسة نظرة المستشرقين:

لا نريد الدخول في بحث واسع الأطراف لتعريف الاستشراق ومدارسه، وهل انّه يشمل جميع من درسوا الإسلام وحياة النبي" (ص)؟ أو من أبدوا اهتماماً بالعرب وتاريخهم ولغتهم وجغرافيا بلادهم؟ ولا ندعو هنا لتحقيق في عبارة الشرق ومن تشمل ومن يخرج عنها، ولا بالغرب وهل انّه وحدة واحدة متماسكة، أم انّه مدارس وتيارات واتجاهات وغير ذلك من البحوث التي يتطرق إليها العلماء والجامعات.

ونكتفي بالقول انّ المستشرقين وهم من كتبوا أو حضروا أو نظّروا عن ولقضايا الشرق، وثقافته وتاريخه، وبأي نيّة، علمية كانت أو استطلاعية نتيجة حب الفضول والاطلاع، أو حسب توجيهات سياسية وأغراض سلطوية، عسكرية أو اقتصادية، ثقافية أو تبشيرية، لكنهم جميعاً يلتقون في أمر واحد: وهو ادعاء معرفة الشرق أو أجزاء منه، مما يجعل نتاجهم تستغله الجهات التي تصنع السياسات وتأخذ القرار في الشؤون المختلفة للدول الغربية، حول دول وشعوب العالم الشرقي ومنه الإسلامي.

وإذا عرفنا انّ الدول الغربية لا تتحرك اعتباطياً أو عشوائياً، وإنما تحاول الاستناد إلى الدراسات والبحوث المتوفرة من ذي قبل، فإن لم توفر لها الإجابة الكاملة والمناسبة، فإنّها ستلجأ إلى مشاريع استطلاعية وبعثات أو دراسات جديدة لاستكمال مناطق الفراغ في الصورة، وثمّ تدارس كيفية الحصول على مبتغاها والوصول إلى أهدافها بالطرق والوسائل المناسبة.

إذا عرفنا وافترضنا هذا، فإنّ الدراسات والبحوث وأدب الرحلات، والتنظيرات التي قدمها المستشرقون ستشكل حجر الزاوية لكلّ السياسات الفعلية والمستقبلية للدول الغربية.

وإذا عرفنا انّ الرؤية التي يلقيها المستشرقون في نتاجاتهم، ستنفذ إلى وسائل الإعلام ومناهج الدراسة، وسيتلقاها أبناء الأجيال المتتابة، عرفنا حينذاك كيف تكمن الرؤية السلبية في أذهان وعقول الجيل الحاضر، وكيف تتحرك مجرد ظهور محرك أو حافز واحد، وإذا بردود الفعل بين كيانات المجتمع الغربي تتوالى في الاتجاه المحتمل ونشعر وكأن مخططاً جباراً وشاملاً قد هيئ له.

وبهذه المعرفة، إن حصلت، سنتمكن من تلمّس الطرق الصحيحة في التعامل مع الغرب بأجهزته السياسية، ووسائله الإعلامية، وجامعاته ومعاهده.

ولن نتحسن أساليب الغرب في التعامل مع المسلمين والشرقيين، دون أن يغيّروا ويصلحوا ويغربلوا ذلك المخزون والركام التاريخي الذي يسيطر على عقولهم وذهنياتهم، ويتحكم بعواطفهم وأحاسيسهم.

وفي هذه المرحلة التي طالت حوالي القرنين من الزمن، وكان فيها كرهٌ وفرٌ، وهزائم وانتصارات، عاصرها، تيار فكري أو حماس ملتهب لدى الكنائس للتهجم على الإسلام والنبي الكريم (ص)، واستغلوا ظروف تواجدهم في فترات المنطقة، لنشر دأريسيهم وقساوستهم للتعرف على الإسلام والتحضير للرد عليه ونقضه والاستهانة به والتهجم على الرسول الأكرم (ص)، لما يشكل من عصب الفكر والحياة الإسلامية.

ويقول الأستاذ مجتبى مينوي، انّ المسيحيين كانوا مقصرين نتيجة هجومهم وحملاتهم العسكرية على أراضى المسلمين كانوا قد فتحوها دون إراقة دماء.

ويقول الفيلسوف الشهير برتراند راسل في محاضرة ألقاها عام 1957 "انّ صفات المروءة والشهامة كانت كبيرة وتجلب الانتباه، بسلوكهم تجاه المسيحيين الذين كانوا يعتبرون مرتدين وكفاراً من وجهة نظر المسلمين، وكانت مروءتهم أكبر وأفضل من الإمبراطورية البيزنطية ذاتها تجاه المسيحيين".

ولازالت آثار التعصب والتشدد تظهر في أفكار وكتابات ونتاج الغربيين حين تعرضهم لفترة الحروب الصليبية.

ويذكر الكاتب نادربور نقشيند، وهو أستاذ في جامعة "هاله" الألمانية، انّ عصر النهضة في أوروبا قد عدل بعضاً من السلوك والتحليل العنيف الذي كان طابع الدراسات الاستشراقية كما لاحظنا في كتابات "ناثان الحكيم" لكوتولدلينسك في أواخر القرن الثامن عشر، إلا أنّ النظرة الدونية والمشوبة بالتحقير، بقيت تسيطر على المستشرقين.

ويقول الأستاذ مجتبى مينوي، انّ المسيحيين كانوا مقصرين نتيجة هجومهم وحملاتهم العسكرية على أراضى المسلمين كانوا قد فتحوها دون إراقة دماء.

ويشير الأستاذ مجتبى مينوي، انّ أوّل كاتب أوروبي كتب عن الإسلام بنظرة فيها شيء من الحقيقة، كان "وليام من أهالي ما مزبوري - انكلترا في القرن الثاني عشر. وهذا ما يذكره نورمان دانيل في كتابه "الإسلام والغرب" الذي طبع في أدنبره عام 1960. ويستطرد مينوي، انّ سلوك الأوربيين المسيحيين بالنسبة للإسلام استمر بالتعامل عن طريق السيف والعنف والقوة، وقليلًا ما كان يتسم بالتسامح والتساهل مع المسلمين حتى القرن الثامن عشر وحينما اطمأن الأوربيون إلى قدرتهم العسكرية ...، سعوا إلى ترجمة آثار ومؤلفات وكتب المسلمين الأدبية والتاريخية والدينية إلى اللغات الأوربية.

ولا ينسى الكاتب، أن يذكر اسم شخص آخر، اشتهر بالانصاف في كتاباته حول الإسلام والنبي (ص)، ألا وهو "بتروس الفونس" وهو يهودي من إسبانيا، انتقل إلى الديانة المسيحية عام 1106 وذهب إلى بريطانيا، وحاول نشر العلوم الإسلامية، ونشر كتاباً عن حياة الرسول الخاتم (ص).

• وجاء الباحثان "فرانتس بوهل" الدنماركي، وهو من رجال الكهنوت البروتستانتى، و"تور آندره" السويدي، ليشرحوا بعضاً من هذه الملابس التي شككت في صحة النقل التاريخي.

• ولكن المستشرق الألماني الكبير، "يوهان فوك" وضع حداً لهذه الادعاءات والاحتمالات، وأثبت أصالة وصحة ما روي عن النبي وذلك في كتاب أسماه "أصالة النبي العربي".

• كما لا بدّ من الإشارة إلى كتابات "مونكمري وات" في الخمسينات والستينات من القرن العشرين، وإلى كتابات "مكسيم رودنسون"، وكتاب "رودي بارت" حول "محمد والقرآن"، حيث درسوا بأسلوب علمي وناقد النصوص التاريخية واثبتوا صحة أغلبها.

ولا نريد الدخول في مواضع الشبهات التي أثارها هؤلاء وأولئك. بقدر ما نرغب في قراءة الخط البياني للاستشراق، وخاصة حول الإسلام والنبي محمد (ص).

وفي هذه المرحلة، نجد أنّ ظهور مدارس فكرية جديدة في الغرب، أثرت على العديد من النشاطات الفكرية، ومنها مدرسة "الهرمنوتيك"، "لهايدغر" و"غادامر" والتي أعطت للنصوص موقعاً ممتازاً

للدراسة والتمحيص واستخلاص المعاني والمفاهيم، بدل المدارس الفكرية السابقة التي كانت تؤكد على الظروف الموضوعية.

حتى جاء دور مدرسة "ما بعد الحداثة"، و"ما بعد المتافيزيا" وظهر المفكرين الكبار "كميشيل فوكو" و"بيير بورديو" و"جاك دريدا". هؤلاء المفكرون، استطاعوا أن يكسروا "قوقعة الكبرياء" الغربي، وأن يظهروا ما للثقافات والحضارات الأخرى من أفضلية وامتيازات.

استمرار السلوك الاستعلائي:

ولكن ظواهر أخرى لا زالت تشير إلى وجود السلوك الاستعلائي للغربيين تجاه العالم الإسلامي، ورسوله الكريم (ص). ونذكر منها أحداث وحوادث: فمنها كتاب "سلمان رشدي"، الذي أثار حفيظة المسلمين.

ومنها الرسوم الكاريكاتيرية التي بدأت في الصحافة الدنماركية، وتبعتها صحف دول أوربية أخرى، وأحدثت ضجة كبيرة.

وأخيراً وليس آخراً، تصريحات الرئيس الأمريكي، وذكره لعبارة "الحروب الصليبية" والتي قدم تبريراً واعتذاراً عنها، ولكنه اتبعها بعبارة "الفاشية الإسلامية".

وبعد ذلك، جاء البابا بنديكت السادس عشر، وهو المثقف الفيلسوف، ليلقي محاضرة أظهرت العديد من القضايا في عمق التفكير المسيحي، والأوربي، والصهيوني. ففي محاضرته تلك، حاول التأكيد على أن المسلمين لم يكونوا إلا اتباع القوة والسيف، وإن العلم والعقل بعيد عن تصرفاتهم.

ملاحظتان جديرتان:

ونلاحظ أن محاضرة البابا، جاءت في وقت وظروف خاصة، واحتوت إشارات وتصريحات وتلميحات جديرة بالدراسة وننقل ما جاء في كراس نشره الدكتور عبدالعزيز التويجري، مدير عام المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، يقول فيه: "أما كون محاور الإمبراطور مانويل الثاني فارسياً ففيه تلميح إلى التخوف من إصرار إيران على امتلاك التكنولوجيا النووية، وما يمثله هذا الموقف من خطر على الغرب وعلى إسرائيل، التي أشار إليها البابا في محاضرته عندما شرح العلاقة بين اليهودية والمسيحية والتقاءهما بالفكر اليوناني. يقول البابا: "في العهد القديم، بلغ المسار الذي بدأ عند النار مستوى آخر من النضج في مرحلة التيه عندما أُعتبر اله إسرائيل، التي كانت محرومة حينئذ من أرضها وعبادتها، رباً للسموات والأرض".

ومن الثابت تاريخياً (والكلام للدكتور التويجري)، أن ملوك بيزنطة، ومنهم (مانويل الثاني)، هم الذين طلبوا شن الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي، حيث كانوا يستغيثون بملوك أوروبا وببائوات الكنيسة الكاثوليكية لإرسال الجيوش لمحاربة المسلمين من العرب والفرس والأتراك والسلاجقة والأتراك العثمانيين. ومانويل الثاني نفسه الذي استشهد الباب بنديكت السادس عشر بنص من محاورته، حشد حملة صليبية بقيادة الملك الهنغاري سيجموند لمحاربة المسلمين، غير أن لها هزمت في عام 1396م.

بل إن الإمبراطور مانويل الثاني دخل في معارك دامية مع أخيه اندرينكوس الرابع ومع ابن أخيه جون السابع للسيطرة على العرش البيزنطي، واستخدم السيف في قهر منافسيه وإزالتهم. ومن العجيب أن هذا الإمبراطور عقد صداقة مع السلطان محمد الفاتح، ووقع معه اتفاقية سلام دفع بموجبها الجزية. وقد يكون هذا سبباً في حقه على المسلمين وعلى دينهم.

وفي تلك المحاضرة، يقول الدكتور التويجري أن "النص استشهد به البابا في محاضرة عن العقيدة والعقل والجامعة، والذي لا علاقة له بموضوع المحاضرة اختير قصداً لإثارة الانتباه إلى قضايا تهم المجتمعات الغربية التي هي في غالبية سكانها، مجتمعات مسيحية، وخاصة في ظل تنامي الإقبال على

دراسة الإسلام واعتناقه من قبل أعداد كبيرة من الغربيين، ولتنامي الوجود الإسلامي في هذه المجتمعات، وإثارة الانتباه أيضاً إلى الرغبة الملحة لدى تركيا للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، والتذكير بكونها وريثة الدولة العثمانية التي حاصرت الإمبراطور ما نويل الثاني خلف أسوار القسطنطينة، بعد هروبه من بلاط السلطان بايزيد الأوّل في مدينة بورصة حيث كان يعيش لاجئاً عنده.

مواصفات مهمة للمرحلة الراهنة:

صحيح أنّ الوعي قد ازداد، وأنّ ثورة المعلومات والاتصالات، أزاحت الحدود وعبرت القارات.

وصحيح أيضاً أنّ المدارس الفكرية الجديدة جعلت النظريات التشكيكية من متاع الماضي.

وصحيح كذلك أنّ بعض المفكرين والمستشرقين، انصوا في عرضهم لحياة الرسول محمد (ص) وبيان التاريخ والمشروع الإسلامي، لكن المواصفات الأخرى بقيت كما هو، مع تغيير في الوسائل:

- 1- ازدادت الهجمة الحاقدة المستهزئة ضد النبي (ص)، من قبل الأجهزة والأشخاص الغربيين.
 - 2- إنّ هذه الحملات، استفادت من الثورة المعلوماتية والاتصالات لتخلق أمواجاً من التأثير الإقليمي والعالمي الواسع الانتشار وفي فترة قصيرة.
 - 3- لا زال الخوف من انتشار الإسلام في العالم الغربي، يحرك الكثيرين وخاصة رجال الكنيسة.
 - 4- بروز التيار المسيحي الصهيوني، بطابعه السياسي الاستفزازي، الذي لا يرى الحقيقة لدى الآخر، ويحتكرها لنفسه، ويسمح لآلياته وأدواته ورموزه باستخدام جميع الأساليب القهرية والتعسفية لفرض رؤيته على العالم.
 - 5- لا زالت الدراسات الناقصة، المبتورة، والمدسوسة، والتي أدت اغراضاً استعمارية وتوسعية، تسيطر على الذهنية العامة للكتاب والصحافيين ورجال الإعلام والثقافة والتعليم.
- ولابدّ من إلمامٍ بالحالة التي يواجهها العالم الإسلامي، بقيمه وتاريخه وحاضره ومنجزاته، دون تلكؤ أو تردد، ودون إجحافٍ أو تعسف، ودون إحباط أو إفراط. وأنّ دور العلماء والمفكرين يبقى محورياً في التصدي لهذه الظواهر الغير صحيحة. كما وأنّ دور المسلمين في غربلة ما يدعو إلى إساءة التلقي لدى الآخرين عن الدين الإسلامي الحنيف والسلوك الإسلامي القويم، وذلك دون التخلي عن الثوابت والأسس التي أكدها القرآن الكريم والسنة الصحيحة ودعمها العقل ولم يخالفها المنطق والمصلحة العامة.
- كما وأنّ للدول الإسلامية دور كبير في التنسيق فيما بينها والوقوف صفاءً واحداً، للحملات الهدامة، واتخاذ طريق الحوار الهادف سبيلاً، وبناء قواعد دولية قانونية تمنع الإساءة للمقدسات.